٥ عبد الله بن الحارث الزبيدى قائد من أهل الصفة

خرج أهل المدينة لاستقبال محمد ﷺ، زرافات ووحداناً، رجالا ونساءً، بعد الذى ترامى إليهم من أخبار هجرته، ومن مؤامرة قريش عليه، ومن احتماله أشد القيظ فى هذه الرحلة المضنية، بين كثبان تهامة،وتلالها وجبالها، التى ترد أشعة الشمس لظىً وسعيراً.

خرجوا من بيوتهم يثيرهم تطلعهم إلى رؤية هذا الوافد العظيم.. لما انتشر من خير دعوته فى أنحاء شبه الجزيرة، ومما تقضى عليه هذه الدعوة من عقائد ورثها أهلها عن آبائهم، وكانت عندهم موضع التقديس.. يضاف إلى ذلك سبب آخر، هو أن النبى ﷺ قد هاجر من مكة إلى المدينة ليقيم بها، وكل طائفة بالمدينة ترتب لهذا المقام الشريف، كلٌّ حسب حاجته ومصلحته.. لكن بين هؤلاء وهؤلاء بشر، انغمرت قلوبهم بالإيمان، فلا حاجة لهم ولا مصلحة إلاَّ الترحيب بالوافد العظيم.. إنهم الأنصار الذين قال فيهم النبى ﷺ: «لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعْباً.. لسلكتُ وادى الأنصار وشِعْبهم، ولولا الهجرةُ لكنتُ امرءًا من الأنصار» . وذلك لاستقبالهم العظيم..

ومن هؤلاء الذين أحبوا محمداً وأحبهم عبد الله بنى الحارث الزبيدى.. ذلك الأنصارى الذى أعد نفسه لخوض تجربة الإيمان، والذى تُجمع كل المراجع التاريخية على أنه كان من الصحابة المقربين إلى النبى ﷺ، وأنه عليه أفضل الصلاة والسلام هو الذى سمَّاه عبد الله بعد أن كان اسمه العاصى، حيث يذكر الطبرى قصة خلاصتها أن النبى ﷺ سأله: ما اسمك؟

فقال: «العاصى»: فقال النبى ﷺ: «العاصى»؟ إثم عند الله.. ومن يومها تبدل إسمه من العاصى إلى عبد الله، وكان يُكنى بأبى تراب، تشبها بالإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وكان من الحريصين على العبادة، الأمر الذى شد انتباه غيره من الصحابة فقد كان يقوم الليل ويصوم النهار.. والجدير بالذكر أن عبد الله بن الحارث عَدَّه الرواه والمحدثون والمؤرخون من أصحاب الصفة. وهم جماعة من فقراء المؤمنين الأوائل، كانوا ينقطعون فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة للعبادة وسُمُّوا بأهل الصُفة.. ويرجع ذلك إلى أن النبى ﷺ كان يطلب منهم أن يصطفوا صفّاً خاصاً بهم عند الصلاة، وكان موقعهم بالنسبة للحرم النبوى فى الجهة المقابلة لحائط القبلة، فكانوا يفعلون ما يُطلب منهم حتى عرفوا بهذا الاسم أو تلك الصِّفَة.

وأما الحكمة التى من أجلها طلب النبى من أهل الصُّفَّة، ومنهم عبد الله بن الحارث، أن يصطفوا صفاً خاصاً بهم، هى أن يراهم جمهور المصلين فيُحسنوا عليهم بدون أن يُريقوا ماء وجههم بالطلب أو بالسؤال.. كان النبى ﷺ يطلب كل مساء من أغنياء الصحابة أن يأخذ كل واحد منهم جماعة من أهل الصفة يستضيفونهم فى العشاء، وكان النبى يبدأ بنفسه فيجمع عدداً من هؤلاء المؤمنين ليكونوا فى شرف ضيافته.

وأما عن مجيء هذا الصحابى الجليل إلى مصر ودفنه بالمحلة الكبرى فيذكر ابن الزيات فى كتابه أن عبد الله بن الحارث الزبيدى كان فيمن دخل مصر من الصحابة ودفن فيها، فقال: ممن دخلها عبد الله بن الحارث من أصحاب الرسول ﷺ، وآخر من مات بها بعد أن عمَّر عُمراً طويلا «ولكن ابن الزيات لم يذكر أسباب حضور عبد الله بن الحارث الزبيدى إلى مصر واستقراره بها.

وقال الإمام أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه: «حججتُ طفلاً مع أبى في سنة من السنين، فرأيتُ الناسَ يزدحمون فى الحَرَم، فسألت عن ذلك، فقيل لى: أنه عبد الله بن الحارث الزبيدى من أصحاب محمد ﷺ. فأخذنى أبى من يدى ثم أجلسنى أمامه وقال: يابنى، اسأله أن يمر بيده على رأسك.. فسألته فمرَّ بها..» ولم يذكر أبو حنيفة رضى الله عنه شيئاً عن مقدمه إلى مصر واستقراره بها حتى الوفاة.

وعن نفسه وعن صحبته المباركة للنبى ﷺ يذكر عبد الله بن الحارث قائلا: لقد رأيتنى سابع سبعة أوسادس ستة مع رسول الله ﷺ فى دار رجل، فمر بلال فناداه بالصلاة، فخرج، فمررنا برجل وبُرْمَتُهُ على النار، فقال رسول ﷺ: أطَابَتْ بُرمتك؟ قال الرجل: نعم، بأبى أنت وأمى. فتناول منها تصنُّعاً، فلم يزل يمسكها حتى أحرم بالصلاة وأنا انظر إليه «وهذا دليل على أن هذا الرجل الصالح كان من قلة المرافقين للنبى».

وعن فتح مكة تكلم المقريزى فذكر أسماء من شهد فتحها من الصحابة الأجلاء نقلاً عن ابن الحكم، فقال: «قدم عبد الله بن الحارث بن الزبيدى إلى مصر فى جيش عمرو بن العاص.. وكان معدوداً من فرسان الصحابة، وتولى قيادة فيلق من فيالق الجيش، وأبلى بلاء حسناً فى فتح مدن مصر وقراها. وهنا تتضح الإشارة إلى وصوله إلى مصر وسبب ذلك.

وتواصل روايات المؤرخين تأريخها لشخصية هذا الصحابى الجليل عبد الله بن الحارث، فتذكر أنه عندما استتب الأمر للمسلمين فى مصر بدأ عمرو بن العاص يخط الخطط فى الفسطاط القديمة للقبائل العربية التى وفدت معه للفتح، كما أنه استبقى بعض الصحابة الذين يأنس لهم ويطمئن إليهم وكان من بينهم الصحابى الجليل عبد الله بن الحارث. الذى أقطعه إحدى قرى الوادى بالمحلة الكبرى حالياً وهى صفط تراب، فسكنها هذا الصحابى، وبنى بها داراً ومسجداً، وقد كانت داره التى سُميت بدار الأنصارى، ويبدو أن هذه القرية سُميت بكنيته أبى تراب.

وكانت داره ملتقى لكل وافد أو عابر سبيل، ينزلها حتى على سبيل التبرك، حيث يحظى بلقاء واحد من أصحاب محمد ﷺ، فيجد من صاحب الدار عبد الله ابن الحارث كل كرم ومودة، برغم تواضع إمكانياته التى كانت تصل أحياناً إلى حد الكفاف. لكن برغم ذلك كان يجود بما عنده متذكراً ما تعلمه من النبى ﷺ الذى كان يجود بكل ما عنده لأى عابر سبيل، أو صاحب حاجه، فيشمله بعطفه ورقته ومودته، حتى لايجعله يشعر بما كان يريد أو يحتاج.. وهى سلوكيات لا تكون إلا مَمنْ كان نبياً رسولا. وكثيراً ما كان هذا الصحابى الجليل يحدث من يقصده عن هدى النبى وتعاليمه وأحاديثه، بأسلوب من كان قريباً منه، عليه الصلاة والسلام.

وأما مسجد عبد الله بن الحارث فقد تحول فى حياته إلى دار للعلم، إلى جانب كونه داراً للعباده، فقصده طلاب العلم يستزيدون من علم هذا الصحابى الذى استقاه من النبى ﷺ وصحابته، وظل على هذا الحال حتى كانت وفاته فى عام ٨٨ بعد أن عمّر طويلاً، فقيل إنه تجاوز المائة عام، قضى معظمها فى العبادة والجهاد فى سبيل الله.

* * *